المختار من كنوز السنة

أ.د/ محمد عبد الله دراز (*)

عن (أَبي هُرَيْرَةَ) - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وكل سيئة يعملها تُكتب بمثلها حتى يلقى الله تعالى - أخرجه الشيخان»[1]

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، هذا هو اسمه المشهور في المختصرات، وكذلك ذكره صاحب (التيسير). وذكر البخاري أن اسمه عبد الله بن عمرو. وكان اسمه في الجاهلية عبد شمس. وأما (أبو هريرة) فهي كنية كناه بها رسول الله ﷺ ؛ لأنه وجد هِرة في الطريق ذات يوم فحملها في كمه فقال له النبي ﷺ ما هذه؟ قال: هرة، فقال: يا أبا هريرة هكذا حَدَّث أبو هريرة عن نفسه فيما رواه ابن إسحاق وأبو هريرة –رضي الله عنه– من زُهَّاد الصحابة وحفّاظهم وأكثرهم حديثًا عن النبي ﷺ مع تأخر إسلامه، فإنه أسلم سنة سبع من الهجرة فيما بين الحديبية وخيبر، ثم قدم المدينة مهاجرًا فسكن (الصفة) ولزم النبي ﷺ يدور معه حيث دار في بيوت نسائه يخدمه ويسأله ويحج ويغزو معه، ومن هنا كانت كثرة حديثه. روى البخاري عنه أنه قال: «لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر مني حديثًا إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» حتى قال فيه بعض الصحابة: لقد أكثر علينا أبو هريرة ولكنه –رضي الله عنه– يعزو كثرة حديثه إلى ما ذكرناه من ملازمته مجلس الرسول وحرصه على السماع منه وحفظه لما يسمع.

روى الشيخان عنه أنه قال: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يُكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله الموعد [2] إني كنت امرأً مسكينًا أصحب رسول

(*) أستاذ التفسير بكلية أصول الدين – حصل على الدكتوراه من جامعة (السوربون) عام ١٩٤٧م، نال عضوية كبار العلماء عام ١٩٤٩م. توفي عام ١٩٥٨م.

(١) صحيح البخاري: ١ / ١٧ – كتاب الإيمان – باب حسن إسلام المرء وصحيح مسلم: ١ / ١١٨ – (١) – كتاب الإيمان – (٥٩) – : باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب: الحديث رقم: (٢٠٥). وانظر: تيسير الوصول: ١ / ١١.

(٢) قوله: (والله الموعد) بفتح الميم فيه حذف تقديره: (وعند الله الموعد) ومراده أن الله سبحانه يحاسبني إن تعمَّدت كذبًا ويحاسب من ظنَّ بي ظن السوء. (انظر فتح الباري) (المجلة).

الله على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق -يعني في التجارة- وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم -يعني في حوائطهم- فحضرت من النبي ﷺ مجلسًا، فقال: مَن يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئًا سمعه مني؟ فبسطت بردة عليَّ حتى قضى حديثه ثم قبضتها إليَّ، فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئًا سمعته منه بعدُ - له في الصحيحين نحو خمس مئة حديثٍ، توفي بالمدينة سنة (٥٩ هـ).

«إذا أحسن أحدكم إسلامه ...إلخ»: لا يختلف حديث أبي هريرة هذا عن حديث أبي سعيد الخدري [٣] الذي قبله. إلا في أشياء يسيرةٍ:

١- تعرض الحديث السابق لأعمال المسلم في جاهليته وإسلامه، واقتصر هذا على الجزء الأخير. فالحديث المتقدم أوفى منه من هذا الوجه.

٢- ظاهر صيغة هذا الحديث اختصاص أحكامه بالمخاطبين في عصر الرسول حيث يقول: «إذا أحسن أحدكم» ولكن المعلوم من الدين بالضرورة أن أحكام الشريعة لا تخص عصرًا دون عصر، بل هي عامة لجميع الأمة إلى يوم القيامة ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩)، فهو عامٌّ حُكمًا وإن كان خاصًا لفظًا. أما الحديث الأول فهو عام لفظًا وحُكمًا لقوله: «إذا أسلم العبد» بأداة الاستغراق. فهو أقوى في العموم.

٣- حديث أبي سعيد فيه استثناء من كتابة السيئات التي يعملها المؤمن حيث قال: «إلا أن يتجاوز الله عنها». وظاهر هذا الحديث عموم المجازاة على السيئة بدون استثناء. فينبغي حمل قوله في هذا الحديث «حتى يلقى الله تعالى» على معنى الاستثناء المذكور، أي إن هذه الكتابة إنما هي بحسب ما يستحقه كل عملٍ عند وقوعه في الدنيا. أما حينما يلقى الله تعالى فالأمر هناك مُفوَّض لمشيئته، فإن شاء أنفذ فيه ذلك الجزاء الذي يستحقه العمل من حيث ذاته، وإن شاء عفا عنه لحكمة يعلمها هو.

(أخرجه الشيخان): في كتاب الإيمان فالبخاري في باب حسن إسلام المرء، ومسلم في باب إذا همَّ العبد بحسنةٍ كُتبت وإذا همَّ بسيئة لم تُكتب.

عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة - أخرجه «أبو داود»[٤].

«عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: صحابي جليل أنصاري خزرجي، أسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة، وشهد بدرًا والمشاهد، وكان ممن جمع القرآن. له في الصحيحين ستة أحاديث، تُوفي وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً بطاعون عمواس»[٥] سنة (١٨هـ).

«قال: قال رسول الله ﷺ: مَن كان آخر[٦] كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة»: قالوا: إن كلمة التوحيد لقب لمجموع الشهادتين، فالمراد مَن قال: «لا إله إلا الله» مع قرينتها «محمد رسول الله».

---

(٣) طرف الحديث: «إذا أسلَم العبدُ فحَسُن إسلامه كتب الله له كل حسنة...».
(٤) «أبو داود» ٢ / ١٦٩ - كتاب الجنائز - باب في التلقين. وانظر: «تيسير الوصول: ١ / ١١».
(٥) قرية بين الرملة وبيت المقدس نسب إليها الطاعون لأنه أول ما بدأ منها.
(٦) يجوز في لفظ «آخر» النصب على الخبرية، والرفع على الاسمية. ونصبه أحسن لأنه صفة في المعنى وحق الصفة أن تكون هي الخبر، وحق الموصوف أن يكون هو المبتدأ.

أقول - : فرق بين المقامين : مقام الاعتقاد الباطني ، ومقام الكلام والذكر .

(ففي المقام الأول) يُقال إن كلمة التوحيد عَلَم على مجموع الشهادتين بمعنى أن الشارع حين يصف العقيدة الصحيحة أو حين يطالب بها المكلَّفين إذا اقتصر في العبارة على كلمة التوحيد وحدها فإنه لا يريد اعتقاد مدلولها المطابقي فقط وهو «الوحدانية» ، وإنما يذكرها اختصارًا ويجعلها رمزًا لكل ما يعتبره ركنًا من أركان الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر ما يبلغه الرسول عن ربه .

أما إنه لا بد في نظر الشارع من الإيمان بجميع ذلك فهذا معلوم من الدين بالضرورة ، وقد نص القرآن الكريم على أن الإيمان ببعض والكفر ببعض واتخاذ سبيل بين ذلك ليس من الإيمان في شيء ، بل هو كفر صُراح .

وأما إن هذه الكلمة على إيجازها تشير إلى كل العقائد الدينية فلأنه إذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح استتبع قطعًا الإيمان بسائر العقائد من إلهيات ونبوات وسمعيات . وهذا قد يبدو في بادئ الرأي أمرًا غريبًا ، ولكنه قد تقدم لكم وجه دلالتها على الإلهيات كلها . والآن أقرر لكم وجه دلالتها على النبوات وغيرها . فأقول : إن تكذيب الرسول هو عند التحقيق شرك بالله تعالى ؛ لأنه لا يكذب الرسول إلا مَن أنكر معجزاته ، ولا معنى لإنكار معجزاته إلا إنكار كونها من عند الله وكونها فعلاً من أفعال الله ، وزعم أنها من عمل مدعي النبوة من اختلاقه وسحره ، أو من فعل الجن والشياطين ، أو نحو ذلك . ومَن زعم هذا فقد جعل من دون الله مَن يقدر على أن يخلق ما لا يخلقه إلا الله . وهذا شرك في الخلق كشرك (الثنوية)[٧] وهو أشنع من الشرك في العبادة مع توحيد الخالق ، كشرك (الوثنية)[٨] فثبت أن عقيدة الوحدانية مستلزمة لعقيدة الرسالة ، بحيث لا يجتمع التوحيد مع الجحد بالرسول في قلب واحد إلا مع الغفلة عما في ذلك من تناف وتناقض . ثم نقول : إن تصديق الرسول في دعوى الرسالة يستلزم تصديقه في كل ما جاء به . فتدخل السمعيات وغيرها في التوحيد من وجه قريب أو بعيد . بل إن قسم الإلهيات نفسه يمكن رجوعه إلى عقيدة الوحدانية ، فإن مَن لم يؤمن بوجود الله فقد أشرك معه الحوادث في أخص صفاته وهي وجوب الوجود وعدم الاحتياج إلى محدث ، ومن لم يؤمن بصفة من صفاته الكمالية فقد أشركه مع خلقه في أظهر صفاتهم وهي العجز والنقص .

وبهذا البيان تعلمون أن التوحيد هو جماع الدين كله ، وأن أنواع الكفر كلها راجعة إلى الشرك . وقد تستنبطون من هنا سرًا جليلاً لتلك العناية الموفورة التي وجهها الرسل كلهم إلى أمر التوحيد من بين الإلهيات ، كما تفهمون سرًا دقيقًا من أسرار التأويل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء : ٤٨)

(وأما في المقام الثاني) وهو موضوع الحديث كما سنبينه فلا نعلم أحدًا من أهل العلم يشترط في

(٧) الثنوي هو مَن يجعل للعالم إلهين اثنين : أحدهما يخلق الخير ، وهو النور . والثاني يخلق الشر ، وهو الظلمة .
(٨) الوثني هو عابد الوثن أي الصنم .

هذا الذكر اجتماع القرينتين فيه بحيث إذا أفردت كلمة التوحيد لم تكن ذكرًا مقبولاً. كيف وهذا الذكر المفرد يؤدي في لسان المؤمن ما يؤديه في لسان الشارع من كونه شعارًا للعقيدة الصحيحة ما ذكر منها في اللفظ وما لم يذكر. فمهما أنس المرء من نفسه الانطواء على المعنى المقصود للشارع فلا عليه أن يعبر بهذه العبارة المختصرة المجملة أو بتلك المطولة المفصلة، وهذه صيغ الذكر الشرعي الواردة في القرآن والسنة أكثرها خالٍ عن التصريح بالشهادة الثانية.

بل التحقيق أن الكافر نفسه إذا قال كلمة التوحيد وحدها حين يعلن دخوله في الإسلام لا نقول إنها لا تُقبل منه مطلقًا، ولا تكفي للحكم بإسلامه بحال من الأحوال، بل ننظر في أمره على تفصيل: فإن كانت أصل مخالفته للإسلام إنما هي في شأن عقيدة الوحدانية كالوثني أو الثنوي، فمثل هذا إذا قال: «لا إله إلا الله» وحدها اكتفينا بها وحكمنا بإسلامه[٩]. أما إن كانت مخالفته الدين من أجل شيء آخر أيضًا من أمر النبوة فإن كلمة التوحيد وحدها لا تكفي في الحكم بإسلامه حتى يضم إليها شهادة الرسالة. وإن كان معترفًا بأصل رسالة النبي ﷺ إلا أنه يجوز اختصاصه بالأميين مثلاً وجب أن يضم إليها الاعتراف بعموم رسالته إلى الخلق أجمعين، وإن كان متهمًا بالانطواء على عقيدة أخرى باطلة مع هذه العقائد الصحيحة وجب أن يتبرأ منها ومن كل دين يخالف دين الإسلام. وبالجملة فالمطلوب أن تكون هناك دلالة نفهم منها اعترافه بجميع ما يبلغه الرسول عن ربه، قولية كانت هذه الدلالة أو فعلية أو حالية، أو مركبة من هذا أو ذاك، إجمالية كانت أو تفصيلية، على حسب ما يقتضيه المقام. وإنما لم يكتف في إعلان الإسلام بكلمة التوحيد وحدها في أكثر الأحوال مع استلزام التوحيد لسائر العقائد على ما قررناه؛ لأن هذا الاستلزام من قبيل اللزوم غير البيِّن لتوقُّفه على وسائط قد يغفل الذهن عنها فيجمع بين التوحيد وبين عقيدة باطلة تضاده غافلاً عن جهة التضاد. فلذلك قلنا إنه إذا كان الداخل في الإسلام من أهل هذه الشبهات وجب تصريحه بها على الوجه الذي بيَّنَّاه.

❀ ❀ ❀

(٩) قاله «ابن الصلاح»، وقرره «النووي» في «شرح مسلم» في «باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة» من كتاب الإيمان، ومحل هذا إذا فهمنا من حاله أن سكوته عن سائر الأركان ليس عن إنكار وإنما هو اكتفاء واختصار؛ لأن اعترافه وهو الخصم العنيد بخطئه في جوهر موضوع النزاع، وإعطاءه يده لخصمه بانضمامه إلى حزبه في المبدأ الأساسي الذي كان يخالفه قرينة على تسليمه بسائر مباديه وإلا لاستمر على خصومته وأعلن مخالفته في جزء آخر من دعواه. نعم قد يكون ما فهمناه من ظاهره خلاف ما ينطوي عليه في باطنه، ولكن هذا الاحتمال قائم حتى لو صرح بالأركان كلها تفصيلاً، ونحن لم نُؤمر أن نشق عن القلوب وإنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.